الإرساليات الأجنبية بين استنهاض التعليم وضياع الهوية

د. رياض غنام(*)

مقدمة

شكلت الارساليات التعليمية الاجنبية حلقة مفصلية من مفاصل الثقافة في مختلف المقاطعات اللبنانية وسائر بلاد الشام. كما انها بنت جهودها على ما تراكم من تطور في ميادين التربية والتعليم، وما سبق نشاطاتها من حلقات تدريس في زوايا المساجد والاديرة والمدارس البدائية الخاصة، على يد افراد مما كان يسمى "مدرسة تحت السنديانة"، او لدى بعض الامراء والمشايخ المقاطعجيين، الذين خصصوا في قصورهم حيزاً لتلقي اولادهم وبعض خاصتهم العلوم الاولية، على يد معلم خاص او رجل دين. ولم تكن المناهج لتتعدى مبادئ القراءة والكتابة والحساب، وبعض العلوم الدينية وعمادها القرآن الكريم والكتاب المقدس. وقد استمر هذا الوضع حتى الثلث الاول من القرن التاسع عشر، عندما بدأ انشاء المدارس التعليمية بمفهومها الحديث، فكانت مدرسة عينطورة باكورة تلك المدارس سنة ١٨٣٤.

والارساليات في تعريفها، هي جهد تعليمي ثقافي منظم غايته نشر الثقافة المعرفية الغربية الدينية، عبر ارسال بعثات فردية او جماعية، ويدعى هؤلاء باسم المبشرين. وتُعرف الكنيسة الكاثوليكية التبشير بانه "عمل رعوي موجه الى الذين لا يعرفون رسالة المسيح. وطبقاً لوصايا العهد الجديد فان المسيح قد اوصى تلاميذه، ومن خلالهم جميع المسيحيين، ان ينشروا الديانة في اصقاع الارض كلها". وهذا ما جعلها تكتسب اهمية كبيرة. فالكنيسة تعتبر التبشير "حق الهي" وتصرح ان من واجبها ومن حقها البديهي، ان تبشر العالم اجمع بالإنجيل، باستقلالية تامة عن اي سلطة ونفوذ بشري، وان تستخدم الاسلوب المناسب لكل مجتمع الى جانب التبشير الديني والوعظ ونشر المعتقدات المسيحية، فضلاً عن قيامها بالأعمال

(*) مؤرخ ومدير عام شؤون الجلسات واللجان النيابية في مجلس النواب.

الانسانية، خاصة بين الفقراء والمحرومين وتحديداً لنواحي نشر التعليم ومحو الامية، والرعاية الصحية وبناء دور الايتام. فكانت الارساليات وخصوصاً البروتستانتية منها، عاملاً في تطور التعليم التقليدي، وتقديم المعونات الصحية والاجتماعية، وذلك من خلال التنافس الحاد بين المبشرين البروتستانت والمبشرين اليسوعيين، اذ ان كليهما القوا في بلاد الشام، وخصوصاً في لبنان، فتناً واضطرابات مذهبية واجتماعية مشؤومة، كانت منسوجة بأصابع الدول الاوروبية التي كانت ترعى المبشرين وتزودهم بشتى وسائل الدعم المادي والمعنوي على حد سواء.

الوضع التعليمي قبل قدوم الارساليات.

لحقب طويلة سبقت القرن التاسع عشر، كانت المساجد والتكايا والاديار مراكز للتعليم والتدريس. ولم تكن الكتاتيب في جبل لبنان، الا عبارة عن غرفة واحدة، تكتظ بالتلامذة بمختلف المستويات والاعمار، وعليهم معلم منفرد، يقرأ عليهم حروف الهجاء، ويتدرجون في القراءة والكتابة الركيكة وعلم الحساب، والالمام ببعض آيات القرآن والانجيل. كان عامة الناس يجهلون القراءة والكتابة، وبعضهم يحصلونها تحت سنديانة البلدة او الكنيسة او زوايا الجامع او الخلوة. وقد استمر الوضع التعليمي في الجبل على ما كان عليه في القرون الوسطى، قطباه دير ومسجد، ومنهجه العلوم الدينية والشرعية، الى ان انشأ البطريرك الماروني يوحنا مخلوف مدرسة سيدة حوقا في جبة بشري سنة ١٦٢٤، فكانت اول مدرسة مارونية في جبل لبنان[١]، تبعتها مدرسة **مارت مورت** التي انشأها البطريرك الدويهي في اهدن.

ابتداء من اواسط القرن الثامن عشر توالى انشاء المدارس في جبل لبنان، خصوصاً بعد انعقاد مجمع اللويزة سنة ١٧٣٦. وتنفيذاً لمقرراته تم انشاء مدرسة وادي شحرور سنة ١٧٥١، ومدرسة في درعون سنة ١٧٥٧، ومدرسة في جبيل سنة ١٧٦٢، ومدرسة في زحلة سنة ١٧٦٩، ومدرسة في دير القمر سنة ١٧٨٢، ومدرسة بزمار سنة ١٧٩٧[٢].

قبيل اواخر القرن الثامن عشر، أنشأ البطريرك يوسف اسطفان مدرسة عين ورقة، بعد ان حول الدير من مسكن للراهبات، الى مدرسة تضمنت برامجها علوم النحو السرياني والعربي وعلم المنطق والفلسفة واللاهوت وشرح الكتب المقدسة، وكانت تضم عشرات التلامذة الذين تبوأوا فيما بعد مناصب دينية وزمنية منهم بطاركة ومطارنة ومشاهير علمانيين[٣].

تصاعد عدد انشاء المدارس في القرن التاسع عشر، فأسست مدرسة كفيفان سنة ١٨٠٨، ومدرسة مار يوحنا مارون في كفرحي سنة ١٨١١، ومدرسة مار مارون في رومية سنة ١٨١٧. وحول البطريرك يوسف حبيش سنة ١٨٣٠ دير القديس عبدا هرهريا الى مدرسة اكليريكية عمومية. ثم حول سنة ١٨٣٢ دير القديسين سركيس وباخوس بريفون في

(١) اسماعيل، حقي: لبنان مباحث علمية واجتماعية، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت ١٩٦٩، ص ٥٦٦-٥٦٧.

(٢) اسامة، عانوتي: الحركة الادبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت ١٩٧١، ص ٣٧.

(٣) الخور أسقف خيرالله اسطفان: زبدة البيان او خلاصة تاريخ أم مدارس سورية ولبنان، "عين ورقا"، المطبعة التجارية السورية-الأمريكية، نيويورك ١٩٢٣، ص ٥٥.

كسروان الى مدرسة[٤] كما ساهم الرهبان في انشاء المدارس. فأنشأوا مدرسة ببان في قرى جبة بشري سنة ١٨٠٦، ومدرسة العبادية سنة ١٨٣٠، ومدرسة رأس المتن سنة ١٨٣٧، ومدرسة الشبانية سنة ١٨٣٩، ومدرسة غبالة سنة ١٨٥٥، ومدارس في كل من حمانا وبسكنتا والفريكة وكفر حبال قرب قرطبة، كما في قرى وادي جزين وصغبين وبدادون[٥].

عبرت الكنيسة المارونية عن استقلالها الذاتي والغنى الاقتصادي الذي راكمته خلال قرنين من الزمن، بالمنحى الثقافي والتعليمي دون أي مساعدة غربية، فقامت بدور مهم في بناء المدارس وتأسيسها في خلال الحقبة الاولى من تاريخ جبل لبنان. وحمل الاكليروس معظم عبء التعليم، فبنى مدارس باستثناء سبع عشرة مدرسة أنشأتها الرهبانية اللبنانية البلدية، وست مدارس انشأتها الرهبانية الحلبية. في حين كانت اهم المدارس كعين ورقة ومار عبدا هرهريا ورومية وريفون تحت رقابة البطريرك الماروني مباشرة[٦]. فكانت المدارس المنبر الذي تمكنت من خلاله الكنيسة، من نشر افكارها وتصوراتها للنظام السياسي الذي بلورته لجبل لبنان في خلال القرنين الثامن والتاسع عشر[٧].

الارساليات الأجنبية تغزو جبل لبنان.

شكلت المدارس التي انشأها الاكليروس المسيحي بمساعدة الدول الأوروبية المعتمدة المذهب الكاثوليكي او الأرثوذكسي طليعة جهود الارساليات الاجنبية في بلاد الشام والجبل اللبناني. فكانت مدرسة عينطورة اولى مدارس المرسلين اللاتين، ثم انشأ الاباء اليسوعيون سنة ١٨٤٣ مدرسة لهم في بلدة غزير لتهذيب الاكليروس، وقد ضمت سنة ١٨٤٥ ثلاثة عشر مدرساً ومائة تلميذ[٨]. وقد ظلت هذه المدرسة قائمة حتى سنة ١٨٧٥. وفيها نقلت الى بيروت، فقامت عوضاً عنها كلية القديس يوسف[٩]، ويعتبر ديكروا Ducrot ان مدرستي غزير وعينطورة ساهمتا في تقوية اواصر الاتحاد بين فرنسا "والامة المارونية" عبر نشر اللغة الفرنسية في جميع العائلات المارونية، وتثبيت محبتهم لحاميتهم فرنسا[١٠].

قابل المرسلون الأميركان والانكليز النشاطات اليسوعية، بتأسيس العديد من المدارس. فأسسوا سنة ١٨٤٣ مدرسة عبيه على يد كرنيليوس فانديك، وما لبثت ان تحولت سنة ١٨٤٧ الى مدرسة داخلية بمساعدة العلامة بطرس البستاني، ثم صار التعليم فيها باللغة العربية، بعد ان كان باللغة الانكليزية، وكانت مدة الدروس فيها اربع سنوات[١١].

---

(٤) يوسف الدبس: الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، قدم له الاب ميشال حايك، دار لحد خاطر، بيروت، طبعة ثالثة ١٩٨٢، ص ٣٧٩. ايضاً: الخوري يوسف اللاذقي، رسالة تاريخية في ترجمة المغبوط البطريرك يوسف حبيش، مطبعة الارز، جونيه ١٨٩٧، ص ٩.

(٥) يوسف الدبس: الجامع المفصل، مصدر سابق، ص ٣٨٢–٣٨٤.

(٦) ايليا، حريق: التحول السياسي في تاريخ لبنان الحديث، مترجم عن الانكليزية، الاهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٢، ص ١٢٠.

(٧) حريق، المرجع السابق، راجع الفصل الخامس.

(٨) Poujoulat, Baptistin: la verte sur la Syrie, Edition Dar Lahad, Khater, Beyrouth, Liban 1985, P 257-258.

(٩) الاب لويس شيخو: تاريخ الآداب العربية ١٨٠٠–١٩٢٥، منشورات دار المشرق، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩١، ص ٤٩.

(١٠) Ducrot, A: le Liban et l'Expédition francaise en Syrie 1860-1861, documents inédits du général Ducrot par p. Camille de rochemountreix, paris, 1921, p 83.

(١١) عيسى اسكندر المعلوف: دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف، طبع بالمطبعة العثمانية في بعبدا، لبنان سنة ١٩٠٧–١٩٠٨، ص ٤٣٦.

نشاط المرسلين الانجيليين جاء بعد عام ١٨٤٢ تاريخ تأسيس الجمعية الاستشراقية الاميركية. وقد جاءت الجمعية لمساعدة النشاط التبشيري، حيث بدأ الاهتمام يوجه الى جبل لبنان، وفيه تنتشر القرى الدرزية البعيدة عن الخدمات، والمحرومة من التعليم بشكل اساسي، فقد اسست السيدة الاميركية دوج Mrs. Dogg عام ١٨٣٥ مدرسة صغيرة كانت مخصصة للدروز، وكان يحضر اليها خمس عشرة فتاة. وفي العشرين من ايار عام ١٨٤٥ افتتحت مدرسة للأطفال في حاصبيا، بدأت بثلاثين تلميذاً، ثم ازداد العدد لأكثر من اربعين[١٢] وما ان وافت سنة ١٨٦٠، حتى كان المرسلون البروتستانت قد اسسوا في الجبل نحو ثلاث وثلاثين مدرسة تضم اكثر من الف تلميذ خمسهم تقريباً من البنات[١٣].

شجع المشايخ المقاطعجيون الدروز من آل جنبلاط وتلحوق ونكد دعوة المبشرين الإنجيليين الى اقامة المدارس في مناطقهم. وقد عزا قنصل روسيا في بيروت قسطنطين بتكوفيتش ظهور البروتستانت في جبل لبنان، الى الارساليات الأميركية والبريطانية، التي تمكنت من التغلغل عن طريق المدارس والمساعدات المالية[١٤]، وعلى هذا النحو تمكنت الارساليات البروتستانتية من انشاء مدرسة في عاليه عام ١٨٥٦، وعينياب سنة ١٨٥٨، وبشامون سنة ١٨٥٩، ورأس المتن سنة ١٨٦١.

وكان ابرز ما قام به المبشرون البروتستانت هو ترجمة الكتاب المقدس (التوراة) عام ١٨٤٩ بمعاونة المعلم بطرس البستاني، الذي واصل العمل بتعريبه حتى وفاته سنة ١٨٥٧. ثم استأنف العمل المبشر فانديك بمساعدة ناصيف اليازجي حتى انجزها عام ١٨٦٤، ثم طبعت الترجمة بعد ذلك بأربع سنوات[١٥].

ويذكر الاديب الشعبي سلام الراسي في موضوع ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة العربية، وتوخياً لسلامة اللغة وسلاسة الاسلوب كلف الشيخان يوسف الاسير وناصيف اليازجي بتلك المهمة اللغوية، لكنهما ما لبثا ان اختلفا عند تعريب الآية الواردة في الانجيل وهي: "لانهم في القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله". كان الشيخ يوسف الاسير قد اقترح ان تستعمل فيها كلمة "يتناكحون" عوضاً "يزوجون ويتزوجون". الا ان الشيخ اليازجي أصر على عدم استعمال هذه الكلمة في الانجيل، ولا سيما في معرض الكلام عن الملائكة. فغضب الشيخ الاسير لان الكلمة وردت في القرآن، ولا شائبة عليها من حيث اللغة والمضمون، وكاد الخلاف يتطور الى مشكلة طائفية. لكن يبدو ان وجهة نظر الشيخ اليازجي انتصرت اخيراً لان هذه الكلمة لم ترد مطلقاً في الكتاب المقدس[١٦].

أسس المرسلون الانجيليون سنة ١٨٢٢ اول مطبعة لهم في جزيرة مالطة، وكانت كتبها تطبع باللغات العربية واليونانية والايطالية والأرمنية والتركية. وكان تفضيل مالطة لقربها من الجبل اللبناني، واتصالها بأوروبا، وسهولة ارسال الكتب منها الى دمشق والمدن

(١٢) كمال الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٨، ص ١٧٦.
(١٣) جورج انطونيوس: يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية، دار العام للملايين، الطبعة السابعة، ١٩٨٢، ص ١٠٦.
(١٤) عبد الرزاق، عبد الرازق عيسى، التنصير الاميركي في بلاد الشام، مطبعة مدبولي، مصر ٢٠٠٥، ص ١٥٠.
(١٥) كمال اليازجي، الشيخ ابراهيم الحوراني في فجر النهضة الحديثة، معهد الدراسات العربية العالمية ١٩٦٠-١٩٦١، ص ٢٩.
(١٦) سلام الراسي، الاعمال الكاملة، في الزوايا خبايا، دار نوفل، بيروت، ج ١، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠، ص ٤٦٥-٤٦٦.

الساحلية[١٧]. وفي عام ١٨٣٤ نقل المرسل الاميركي عالي سميث Elie smith المطبعة من مالطة الى بيروت. لكنها توقفت لأسباب تقنية بعد اربع سنوات. وبعد ادخال حروف عربية جديدة اليها نقلاً عن احسن خطوط كتبة ذلك الزمان في الأستانة، "صار لحروفها صيتاً طيباً لنضارتها وحسن صورتها، وعرفت في بلادنا بالحروف الاميركية". وبعد وفاة سميث تولى ادارتها فانديك سنة ١٨٥٧، فاهتم بتحسين ادواتها وزاد الحركات على الحروف العربية، وجلب لها الآلات البخارية حتى صارت من اهم المطابع الشرقية آنذاك[١٨].

كان الصراع التبشيري قد اخذ مداه في بدايات الثلث الثاني من القرن التاسع عشر، ووجد المرسلون في الطباعة تكملة وارتقاء لجهودهم التعليمية والتثقيفية. فقابل الاباء الفرنسيون جهود البروتستانت، بإنشاء مطبعة لهم في القدس الشريف وباشرت اعمالها سنة ١٨٤٩. كما انشأ الكاثوليك المطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٤٨، وكانت طباعتها حجرية في اول عهدها، لكنها عادت فطبعت على الحروف ابتداء من سنة ١٨٥٤[١٩].

لقد ساهمت حركة الطباعة في نشر الثقافة والتعليم، وحيث ان الصحافة ركن من اركان الحياة الفكرية والاجتماعية وهي "صناعة الصحف" التي بها "تنشر الانباء والعلوم على اختلاف مواضيعها بين الناس"، فقد أنشأ المرسلون الأميركان في بداية سنة ١٨٥١ مجلة دعوها "مجموع فوائد"[٢٠]، طبعوها في مطبعتهم في بيروت بهمة القس عالي سميث. وتعتبر هذه المجلة "باكورة كل المجلات التي ظهرت باللسان العربي، واقدمها عهداً على الاطلاق. وكانت مصدّرة بتقويم الشهور الشمسية والقمرية. ومباحثها تدور حول الشؤون الدينية والعلمية والتاريخية والجغرافية وسوى ذلك من المواضيع المختلفة. وعام ١٨٥٥ ظهر منها ثلاثة اجزاء، ثم احتجبت، وقد بلغ مجموع عدد صفحاتها ١٤٤ صفحة[٢١]. وفي سنة ١٨٥٢ قام اعضاء الجمعية السورية بإصدار مجلة عرفت باسم "الجمعية"، وعهدوا بإدارتها الى المعلم بطرس البستاني، وقد ساعده اعضاء الجمعية في التحرير، وكانت مباحثها تشتمل على جميع المواد العلمية والفنية والتاريخية والتجارية والادبية والشرائع والاكتشافات والاختراعات العصرية ونحو ذلك.

وتنامى التنافس بين الارساليات ليطال انشاء الجمعيات، فنسجوا على نسق الجمعيات التي عرفوها في بلادهم، واقاموا المؤسسات والمراكز التوثيقية فحققوا بذلك السبق على العرب انفسهم. وكانت اولى الجمعيات التي انشئت الجمعية الاسيوية الباريسية التي اسسها البارون الفرنسي سلفستر دي ساسي مع جماعة من المستشرقين سنة ١٨٢١. وكان لها اكثر من مجلة. وبدورهم انشأ الانكليز جمعية لهم سموها "جمعية بريطانية العظمى وإيرلندة الاسيوية الملكية" وكان من اركانها جماعة من المستشرقين الإنجيليين، واصدر هؤلاء سنة

(١٧) يوسف كزما الخوري: الدكتور كرنيليوس فانديك، ونهضة الديار الشامية العلمية في القرن التاسع عشر، دار سوراقيا للنشر، لا تاريخ، ص ٢٦.
(١٨) الاب لويس شيخو: تاريخ فن الطباعة في المشرق، منشورات دار المشرق، بيروت، طبعة ثانية ١٩٩٥، ص ٥٠٤-٥٠٥.
(١٩) الاب لويس شيخو: تاريخ الآداب العربية، ص ٤٨.
(٢٠) اسماعيل حقي: مباحث علمية واجتماعية، ص ٥٧٥.
(٢١) فيليب دي طرازي: تاريخ الصحافة العربية، المطبعة الادبية، بيروت ١٩١٣، ج ١، ص ٥٣.

١٨٢٤ نشرة علمية دعوها "مجلة لندن الاسيوية الملكية". كذلك كان للألمان والنمساويين اهتماماتهم ومستشرقوهم والجمعيات التي تهتم بشؤون المشرق العربي والاسلامي[٢٢].

بتشجيع من المستشرقين والمبشرين الاجانب، هب اخوانهم الى انشاء جمعيات وطنية كانت اولاها الجمعية السورية التي انشئت بسعي المرسلين الأمريكان سنة ١٨٤٧ باسم "جمعية الآداب والعلوم"، وهدفها نشر العلوم وتنشيط الآداب والفنون. وكان ابرز اركانها ناصيف اليازجي وبطرس البستاني وميخائيل مشاقة وسليم نوفل وميخائيل مدور وميخائيل فرج وشكرالله خوري ونعمة ثابت وانطونيوس الأميوني ويوسف كتافاكو وتشرشل بك وعالي سميث وكرنيليوس فانديك ووليام طومسون ويوحنا ورتبات، واستمرت هذه الجمعية حتى سنة ١٨٥٣[٢٣]، ولم يكن فيها اي عضو مسلم بسبب نشاط المبشرين فيها. وكان جلهم من النصارى السوريين المقيمين في بيروت، وقد بلغ مجموع الاعضاء نحو خمسين عضواً[٢٤].

ووجد اليسوعيون في انشاء جمعية ادبية خاصة بهم الرد المباشر على قيام جمعية المرسلين الأمريكان، فأنشأوا سنة ١٨٥٠ "الجمعية المشرقية" واغلب اعضائها من الطائفة الكاثوليكية امثال ابراهيم النجار وفرنسيس مسك وحنا ابي صعب والدكتور سوكة ورزق الله خضراء وطنوس الشدياق وايوب ابيلا وحبيب اليازجي وإبراهيم باخوس وحنا عودة وفرنسيس مطر. لكن هذه الجمعية ما لبثت ان دخلت مرحلة النسيان فكانت قصيرة الحياة كسابقتها[٢٥].

ويبدو ان الدوافع التبشيرية التي كانت وراء هاتين الجمعيتين، والعداء الديني والمنافسة، فضلاً عن الاهداف السياسية لبعض المستشرقين المتسترين وراء احياء ونشر العلوم والآداب، ادى الى انفراط عقدهما المبكر. وكانت العداوات الدينية هي السائدة بين الجمعيتين نظراً الى رعاية المبشرين لهما، كما زادت من نفور المسلمين وابتعادهم عن الانضمام اليهما[٢٦]. لذلك قامت على انقاضهما الجمعية العلمية السورية سنة ١٨٥٧ برئاسة الامير محمد امين ارسلان، وقد ضمت عدداً من اعضاء الجمعيتين السابق ذكرهما امثال ناصيف وابراهيم اليازجي وبطرس البستاني والدكتور سوكة وعالي سميث فضلاً عن بعض المفكرين من جميع الطوائف والمذاهب كحسين بيهم وابراهيم فخري وبولس دباس وسليم رمضان وسليم شحادة وعبد الكريم بدران وموسى يوحنا فريج وحنين الخوري وسليم البستاني ويوسف الشلفون وحبيب الجلخ[٢٧]. وبلغ عدد اعضائها اكثر من ١٥٠ عضواً، وقد نالت الرخصة القانونية من لدن السلطنة العثمانية، ونشرت اعمالها وابحاثها سنة ١٨٦٨ في مجلة "مجموعة العلوم" فكان لنشاطها وهمنة

(٢٢) شيخو- تاريخ الآداب العربية، ص ٤٥-٤٦.
(٢٣) اسماعيل حقي، مباحث علمية، ص ٥٧٤. ايضاً فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، ج ١، ص ٥٤.
(٢٤) جورج انطونيوس، يقظة العرب، ص ١١٦-١١٧- و ١١٩.
(٢٥) اسماعيل حقي، مباحث، ص ٥٧٤-٥٧٥. ايضاً شيخو تاريخ الآداب العربية، ص ٧٥.
(٢٦) جورج انطونيوس، يقظة العرب، ص ١١٨-١١٩.
(٢٧) ابراهيم الاسود، تنوير في تاريخ لبنان، لا دار بيروت ١٩٢٥، ج٢ ص ٣١٩. ايضاً، لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية، ص ٧٥-٧٦.

مفكريها وتنوع تياراتهم السياسية ومشاربهم الدينية، ما اغنى المعارف والآداب العربية وشرف الجمعيات العلمية والادبية، لذا اعتبرت الجمعية العلمية السورية مهداً لحركة سياسية جديدة، وعدت في اساسها اول مظهر من مظاهر الوعي الجماعي للعرب(٢٨).

ومن تأثير الارساليات الاجنبية في عملية التدوين التاريخي، ادخال التقويم الغربي، اذ وحتى اواسط القرن التاسع عشر، ظل التدوين التأريخي يتم حسب السنين الهجرية، ثم راح يتبدل تدريجياً حتى اواخر القرن المذكور بفعل عمليات التغريب التي ساهمت فيه الارساليات، وكثرة الاحتكاك بالأوروبيين، فضلاً عن توجهات السلطنة في اتباع الاصلاحات الغربية بفعل الضغوطات عليها(٢٩).

تنافس الارساليات على خلفية الصراع الدولي

أدت المنافسة بين المرسلين الأمريكان والرهبنة اليسوعية، دورها في الصراع السياسي الثقافي بعد ان توج البروتستانت عمق نفوذهم في المجتمع الجبلي، وخصوصاً في المناطق الدرزية، اثر فتحهم مدرسة عبيه عام ١٨٤٣، فقابلهم اباء الرهبنة اليسوعية بتحويل الدار التي ابتاعوها في غزير الى مدرسة داخلية عام ١٨٤٧، "ونشروا فيها لواء الدين والآداب". الامر الذي جعل المنافسة بينهما على انشاء المدارس امراً مألوفاً في الديار الشامية، كما غدت هدفاً لكثير من الطرائف التي كان بطلها المستشرق كرنيليوس فانديك. فكان اذا سار لإنشاء مدرسة في بلدة قال: "اني ذاهب لإنشاء مدرستين"، لاقتناعه بان اباء الرهبنة اليسوعية لا يتركونه ينفرد بالتدريس في تلك البلدة، فيكون بذلك قد سعى بصورة غير مباشرة الى انشاء مدرسة ثانية(٣٠).

يعتبر نشاط المبشر فانديك في انشاء المدارس، بمثابة دور المنفذ النشيط لأوامر المجمع الاميركي لمندوبي البعثات التبشيرية "وللإرسالية السورية"، فكان يقدم رغبة منه في نشر المعرفة بين الاهلين بحماس، حتى انه في عام ١٨٤٨ انشأ الى جوار مدرسة عبيه، خمس مدارس في كفرمتى وعيناب وعيتات وعرمون وعين عنوب. وكانت تضم نحو مئة وثلاثة وثمانين طالباً اكثرهم من الطائفة الدرزية، وكانت الغاية اعداد الطلاب لدخول مدرسة عبيه في المستقبل. وقد اتاح هذا الامر لفانديك اعداد نفسه طوال سبعة وعشرين عاماً قبل التحاقه عام ١٨٦٧ بالكلية السورية الانجيلية، حتى قال عنه تلميذه الدكتور يعقوب صروف "لم ينطق بلساننا اجنبي افصح من الدكتور فانديك"(٣١).

رأى المرسلون الأمريكان ان حاجة الديار الشامية الى مؤسسة علمية تدرس فيها العلوم العالية امر لا مناص منه، ولذلك بذلوا قصارى جهدهم لكي يتم هذا الامر الجليل على ايديهم لا على ايدي الرهبنة اليسوعية. وفي الثالث من كانون الاول سنة ١٨٦٦ فتحت الكلية السورية الانجيلية ابوابها فدخلها ستة عشر طالباً، وكانت اللغة العربية هي لغة التعليم فيها، كما عين لها مجلس امناء مركزه في نيويورك. ولبعد المسافة وصعوبة المواصلات في ذلك الوقت، عين للكلية

(٢٨) جورج انطونيوس، يقظة العرب، ص ٩٧ وما يليها.
(٢٩) عيسى اسكندر المعلوف، دواني القطوف، ص ٢١٧.
(٣٠) يوسف كزما الخوري: فانديك، ص ٨٣.
(٣١) المصدر السابق نفسه، ص ٨٣-٨٤.

مجلس مدراء مؤلف من ١٨ شخصاً من المرسلين الامريكيين المنتشرين في الديار الشامية، والقنصلين الاميركي والبريطاني المقيمين في بيروت، بالإضافة الى بعض التجار البريطانيين. وكان الدكتور كرنيليوس فانديك من بين اعضاء مجلس المدراء الاول[٣٢].

عندما افتتحت الكلية السورية الانجيلية في بيروت، كانت عبارة عن بناء مؤلف من اربع غرف فقط، وعدد تلامذتها من السكان المحليين ١٦ شخصاً معظمهم من جبل لبنان، ثم اخذ المنتسبون اليها يتضاعفون الى ان اصبح ٤١ شخصاً منهم اربعة طلاب في العلوم الطبية. وفي سنة ١٨٧٣ انشئ فيها دائرتان، الدائرة العلمية والدائرة الطبية، ولما كانت هذه الكلية مسجلة لدى الحكومة الاميركية، فإنها اعطيت الحق بإعطاء المنتهين من الدراسة فيها، رتبة بكالوريوس وشهادة الدكتوراه. واول دفعة تخرجت من القسم العلمي سنة ١٨٧٠، اشتهر منهم الدكتور يعقوب صروف، في حين كان اشهر من تخرج من الدائرة العلمية سنة ١٨٧١ الدكتور شبلي الشميل. وما كاد القرن التاسع عشر يطوي السنة الاخيرة منه، حتى ارتفع عدد طلابها الوطنيين الى ٨٧٦ شخصاً منهم ٢٠١ للعلوم، و ١١٧ للطب و ٤٥٥ للقسم الاستعدادي (اي الثانوي) و ٣٧ للصيدلة و ٥٢ للتجارة، و ١٤ في قسم التمريض. وفي سنة ١٩٢١ اجازت نظارة المعارف الاميركية للمرسلين الانجيليين تحويل "الكلية السورية الانجيلية" الى جامعة، ومنذ ذلك التاريخ اصبحت تحمل اسم "الجامعة الاميركية في بيروت". كما اصبحت تشمل عدة كليات لتدريس العلوم العصرية على اختلاف اختصاصاتها النظرية والتطبيقية والعلوم الطبيعية والطب والصيدلة والهندسة والزراعة. ومنها قسم للدراسات العربية والتاريخ، وينتظم في صفوفها آلاف من ابناء البلاد الوطنيين والعرب والاجانب[٣٣].

ان الاساتذة الذين ابتدأت الدراسة بهم، في "الكلية السورية الانجيلية" كانوا جميعاً من القساوسة البروتستانت الأمريكان. وهم يعتبرون بحق الرواد المؤسسين للتعليم العصري في بيروت، وكان منهم كرنيليوس فانديك وجورج بوست والدكتور غراهام. وكان التدريس يتم باللغة العربية، الا ان المشرفين على الكلية، سرعان ما عدلوا عن اعطاء الدروس باللغة الوطنية، واحلوا اللغة الانكليزية محلها بحجة ان العربية لا تستجيب لسرعة تطور المصطلحات العلمية الحديثة[٣٤]. ولعل في ذلك تحامل على اللغة العربية ووصمة تخالف الواقع، اذ ان اللغة العربية عبر تاريخها كانت الجسر الذي عبرت من خلاله الى الثقافات الغربية الحديثة، ولا يخفى ما للغرب من مخططات للنيل من الثقافة العربية، ودورها على مدى التاريخ في استنهاض الحضارة الغربية وتطويرها.

اوائل المرسلين الفرنسيين

قبيل انتهاء الحروب الصليبية، كان الراهب الفرنسي "فرنسيس الاسّيزي" قد اسس الرهبانية الفرنسيسكانية في بيروت، ثم بعدها اقام الفرنسيون اثنتي عشرة ارسالية تعليمية في بلاد الشام، واعقب ذلك اليسوعيون سنة ١٥٧٨، ثم الكبوشيون سنة ١٦٢٥ واللعازريون

(٣٢) المصدر السابق نفسه، ص٨٤-٨٥.
(٣٣) الشيخ طه الولي، بيرت في التاريخ والحضارة والعمران، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٣ ص ٢١٧-٢١٨.
(٣٤) المرجع السابق عينه، ص ٢١٨-٢١٩.

سنة ١٧٨٣. وفي العصر الحديث سار اليسوعيون على خطى القساوسة الانجيليين الأمريكان في استعمال الوسائل التعليمية والصحية هدفاً لنشر عقيدة الكثلكة واللغة الفرنسية. وقد ادى التنافس بين الفريقين الى توتر غالباً ما اتسم بالجفاء والصراع، ولا سيما من قبل اليسوعيين الذين اتهموا الانجيليين بالهرطقة الدينية، والخروج على التعاليم النصرانية. وكان التنافس بينهما يتجاوز ما عرف عن رجال الدين والعلم من التزام بالقيم الروحية والتسامح وضبط النفس والبعد عن الانفعالات العصبية. يقول فانديك في مذكراته ان تلاميذ المرسلين الأمريكان كانوا يضطرون لملازمة اساتذتهم اثناء الليل واطراف النهار خوفاً على انفسهم من ان يخطفهم او يقتلهم اليسوعيون وانصارهم من رجال الاكليروس[٣٥].

كانت مقاومة الاكليروس الماروني لأعمال التبشير البروتستانتي عنيفة على الصعد كلها، ولكن ابرز نتائجها الايجابية على الصعيد المحلي، حماس كليهما لفتح المدارس الخاصة بكل منهما في مختلف انحاء البلاد. فبالإضافة الى الانتشار الواسع في مناطق الجبل اللبناني، راح يمتد الى بيروت على غرار التواجد الانجيلي الذي بدأ انتشاره عندما كانت ايدي المصريين. ففي سنة ١٨٣٤ وصل الى بيروت اول راهب يسوعي ويدعى ريمون استاف واشتهر بين اللبنانيين باسم "بونا سليمان". كذلك لحق به زميل سنة ١٨٣٩ من اصل بولوني اسمه مكسيميليان ريلو، الذي اشتهر باسم "الاب منصور". ومنذ ذلك التاريخ اصبحت بيروت محط انظار اليسوعيين خصوصاً بعد ان "كبرت واصبحت اسكلة (ميناء) لبنان وسورية، ومركزاً تجارياً وادبياً وسياسياً لهذه البلاد". كما كانت خشيتهم من ان تتسرب العقائد البروتستانتية الى بقية النصارى، وكيما تصونهم خوفاً من اضاليلهم على حد قول الاب لويس شيخو اليسوعي[٣٦].

كان الرهبان اليسوعيون قد حولوا معهد غزير الى مركز للآباء اليسوعيين، ومصيفاً لرهبان بيروت، واعتنوا بمدارسهم لمواجهة نشاط الانجيليين، الذين كانوا قد سبقوهم الى انشاء "الكلية السورية الانجيلية". وخلال تولي البابا بيوس التاسع سدة الفاتيكان، اصدر عام ١٨٧٤ رقيماً بابوياً منح فيه المدرسة اليسوعية لقب الكلية، فكان من نتيجة ذلك اعتراف الفاتيكان لها بشهادة خريجيها باللاهوت والحق القانوني والفلسفة.

بعد انتقال اليسوعيين من غزير الى بيروت سنة ١٨٧٥، اصدر البابا رقيماً بتثبيت المدرسة اليسوعية كجامعة لتضاهي بمستواها العلمي ومناهجها التربوية "الكلية السورية الانجيلية". ثم سوت الحكومة الفرنسية بين المتخرجين من المعهد اليسوعي في بيروت، والمتخرجين من المعاهد الرسمية في فرنسا، وجعلت الشهادة اليسوعية موازية للشهادة الرسمية الفرنسية. كما عدلت لغة التدريس من العربية الى الفرنسية، كما حصل بالكلية السورية الانجيلية، واستغنت عن اللغة العربية في تدريس موادها العلمية[٣٧].

بعد ان تحولت المدرسة اليسوعية الى جامعة سنة ١٨٨٣ ترعاها الحكومة الفرنسية،

(٣٥) يوسف كزما الخوري، الدكتور كرنيليوس فانديك، المذكرات، ص ١٦٩-١٨٣.
(٣٦) المصدر السابق عينه، ص ٢٢١-٢٢٢.
(٣٧) الشيخ طه الولي، بيروت في التاريخ والحضارة والعمران، ص ٢٢٢.

اصبحت تحمل اسم "جامعة القديس يوسف اليسوعية"، أُحدثت فيها كلية جديدة للفلسفة، ثم انشئت فيها كليات اخرى سنة ١٩١٣ منها الهندسة والحقوق اللتان وضعتا تحت رعاية جامعة ليون الفرنسية. كذلك انشئت لاحقاً كلية لطب الاسنان(٣٨).

ان الارساليات التعليمية الاجنبية بمختلف جنسياتها ومذاهبها الدينية، نجحت فعلياً بتركيز ثقافة الغرب، وفرضت على السكان الوطنيين حضارته واسلوب حياته، الا انها فشلت في تحويل السكان عن مذاهبهم ومعتقداتهم الدينية. فالتبشير بالمذهب الانجيلي لم ينتشر كما كان متوقعاً لدى المرسلين الأمريكيين والانكليز، رغم الاغراءات والتضحيات التي قدموها سواء في المجالين التعليمي او الطبي. فالمسلمون واجهوا المبشرين بعناد صارم خصوصاً وان السلطات العثمانية لم تكن لتتساهل في موضوع كهذا، اما الموارنة والارثوذكس فقد طردوا المبشرين البروتستانت، بعد ان هددوهم بالقتل خصوصاً في الشمال وفي كسروان. اما الذين تحولوا من الدروز الى المذهب الانجيلي في خلال وجود الحكم المصري، فكان اما بسبب التخلص من التجنيد الاجباري الذي فرضه ابراهيم باشا، او بسبب الاغراءات التي قدمت على صعيدي التعليم والطبابة، وهذا ينطبق ايضاً على سائر الطوائف المسيحية التي استفادت من هذين الامرين ولو بنسبة ضئيلة جداً(٣٩).

المبشرون اداة تنفيذية للإرساليات الاجنبية.

اتبعت الارساليات الدينية والمؤسسات التبشيرية في تحقيق غاياتها مختلف الطرق والأساليب التي من شأنها التأثير على السكان بهدف تنسيبهم مذهبياً وسياسياً، مستغلين حاجاتهم الصحية والتعليمية والحياتية، وكان شعارها "افتح مدرسة تقفل مسجداً"(٤٠). ولما كان التبشير في حقيقته الجوهرية مظهراً من مظاهر الصراع الأوروبي، بهدف ايجاد مرتكزات سياسية وثقافية وقواعد اتصال وتواصل بين الدول الأوروبية والسكان عبر قناصل هذه الدول(٤١). فقد كانت المصالح البريطانية لا تقل اهمية عن تلك الخاصة بالفرنسيين، الا انها لم تستند الى فئة من السكان لضعف المذهب البروتستانتي في الجبل. وشعرت بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية بهذه الثغرة، فعملتا على ايجاد طائفة موالية اليهما، وتستطيع من خلالها التدخل في الشؤون الداخلية. وعندما فشلتا في هذا المسعى اعتمدتا وخصوصاً بريطانيا على الدروز بعد ان خُدعت بريطانيا بتقارير مغرضة حملتها على الظن، ان الدروز يميلون الى المعتقد الانجيلي(٤٢). اما روسيا فقد اعتمدت على الارثوذكس ليس في جبل لبنان فحسب، بل اينما وجدوا داخل الامبراطورية العثمانية، وكان هدفها احتلال العاصمة الأستانة والمضائق البحرية، وحق الاشراف على الرعايا الأرثوذكس اينما وجدوا في السلطنة العثمانية(٤٣).

---

(٣٨) المرجع السابق عينه، ٢٢٢-٢٢٣.

(٣٩) المرجع السابع عينه، ٣٢٧.

(٤٠) Poujoulat, la vérité sur la Syrie, T1 p257.

(٤١) صالح زهر الدين، التبشير واثره في جبل لبنان، منشورات رسالة الجهاد، طرابلس ١٩٨٦، ص ٢٩.

(٤٢) Henri, Guys, beyrouth et le Liban, éditions dar Lahad, Khater, beyrouth, Liban, 1985, T.2, P.197.

(٤٣) جرانت أ.ج. وتمبرلي هارولد، اوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٧٨٩-١٩٥٠، ترجمة بهاء فهمي، الناشر مؤسسة سجل العرب القاهرة، الطبعة السادسة، بدون تاريخ، ص ٤٠١.

وعلى الرغم من توسع عمل المؤسسات التبشيرية، فان اعمال المبشرين لم يتخذ المنحى الحاد، بل كان يتم بشكل هادئ وبسيط، الى ان بادرت لجنة الاشراف على الارساليات الاجنبية الاميركية عام ١٨١٩، الى ارسال جماعة من المبشرين الى بيروت، بهدف تفعيل دور المؤسسات التبشيرية. وما ان تواسط القرن التاسع عشر، حتى كان للإرساليات البروتستانتية الاميركية، فروعها في حمص وطرابلس وصيدا وبيروت وعبيه ودير القمر[٤٤]. ويذكر القنصل الروسي بيكوفيتش انه: "رغم الاموال الباهظة والمكائد لم يحقق البروتستانت الا نتائج ضئيلة، اذ لا يضم جبل لبنان اكثر من ٦٠٠ نسمة من الجنسين واكثريتهم من المرتدين عن الطائفة الارثوذكسية[٤٥]. ويذكر ان المبشرين بارسنس وفسك ما ان وصلا الى بيروت وباشرا عملهما في الاوساط الارثوذكسية والمارونية، حتى وجدا جفاء وخصومة، وما لبث ان تحول الى صراع حاد، فكان ان بدأت مرحلة من الصراع التبشيري طاول عدة ميادين اجتماعية وصحية وثقافية ودينية[٤٦].

لقد استغل المبشرون الاوضاع الصحية البدائية، وحاجة الاهالي للطبابة والدواء والتعليم، فاتخذوا من هذه الحاجات ستاراً يتقربون من خلاله ليس من عامة الناس فقط، بل من الزعماء والاعيان المقاطعجيين، حتى اذا وثق هؤلاء بهم افضوا اليهم بآرائهم الدينية واقنعوهم بالارتداد واعتناق المذهب الذي يبشرون به[٤٧]. كما ان المبشر الاميركي جسب كان يقول "ان المدارس شرط اساسي لنجاح التبشير، وهي بعد هذا، واسطة لا غاية في نفسها". وقد اعتبرت ايضاً بمنزلة "دق الاسفين". لأنه بواسطتها تم ادخال الانجيل على المذهب البروتستانتي الى مناطق كثيرة لم يكن بالإمكان ان يصل اليها مع المبشرين عن طريق آخر[٤٨].

لم تكن اعمال المبشرين في الربع الثاني من القرن التاسع عشر لتتم بشكل هادئ وبسيط، فقد واجهتها صعوبات وتصدت لها طوائف، ووجهت بردود فعل عنيفة نظراً الى ما تشكله من اخطار وتبدلات على مستوى التوازن الطائفي بين السكان. واذا كان المسلمون بمنأى عن المبشرين لأسباب عديدة، الا ان التنصر طاول الاسرتين الشهابية السنية واللمعية الدرزية، وبعض الاسر الدرزية في المتن، والشيعية في بلاد جبيل، لأسباب سياسية واقتصادية، لذلك تخطى عمل المبشرين ليتناول عامة الطوائف المسيحية الأرثوذكسية والمارونية والكاثوليكية والبروتستانتية. فكان ان عمت جبل لبنان موجة من التعصب، قابلها رجال الدين بإجراءات فيها الكثير من الشدة والعنف غير منسجمين مع روح التسامح والمودة التي تدعو اليها المسيحية. فالبطريرك الماروني في عملية منه لحفظ كيان الموارنة، رمى بالحرم الكنسي

(٤٤) قسطنطين بازيلي، سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية، ترجمه عن الروسية يسر جابر، راجعه منذر جابر، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٧ ص ٣٦٢.

(٤٥) قسطنطين بتكوفيتش، لبنان واللبنانيون، قدمت له إ.م. سميليا نسكايا، عربه يوسف عطاالله، راجعه مسعود ضاهر، دار المدى للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٦، ص ١٦١.

(٤٦) انظر الوثيقة رقم /١/ في باب الملاحق.

(٤٧) Henri Guys. Op. cit. T.2 P.125-126؛ ايضاً: مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الخامسة، ص ٥٨-٦٤.

(٤٨) خالدي وفروخ، مرجع سابق، ٦٧.

عقاباً لمن يقترب من اي بروتستانتي، ومنع رعيته من زيارتهم او الاحسان اليهم، واضطهد المبشرين وابناء البلاد الذين ينحازون اليهم(٤٩). وبلغ من شدة اجراءاته، انه امات اسعد الشدياق شقيق المؤرخ طنوس واللغوي فارس، شرّ ميتة، بعد ان حبسه في قنوبين في مغارة سد بابها بالحجارة(٥٠). وقد اعتبره القس فريد عوده "اول شهيد انجيلي في هذه الديار"، كما اعتبره "اهالي انكلترا واميركا كاعتبارهم لبولس الرسول"(٥١). وكل ذلك لان اسعد تداخل مع المبشرين البروتستانت وقال بعقيدتهم. كذلك استجاب الرعايا والاعيان الموارنة لتعليمات بطريركهم فحالوا دون نزول البروتستانت بين ظهرانيهم وطردوهم من القرى التي حلوا فيها، وجمعوا نسخ الانجيل المقدس الذي وضع على الطريقة البروتستانتية واحرقوها في الساحات العامة(٥٢). وقد شبه الرحالة جون كارن سلطة البطريرك "بسلطة ديوان التفتيش التي تمتد شعبها ويسري نفوذها الى كل دير ماروني وكوخ ومنزل"(٥٣).

وكما واجه الموارنة جهود المبشرين البروتستانت، كذلك تصدى لهم الروم الأرثوذكس. وقد وقعت في جهات حاصبيا حوادث واضطرابات كانت على جانب كبير من الاهمية والخطورة(٥٤). وكان على الرعايا الارثوذكس ان يردوا عنهم ليس جهود المرسلين البروتستانت فقط، بل أيضاً جهود المبشرين الكاثوليك والموارنة الذين ما انفكوا يكرزون بالإنجيل على الطوائف المسيحية والاسلامية، فحققوا بجهودهم تلك نجاحاً ملحوظاً بنظر بعض الاسر الاسلامية الشيعية والسنية والدرزية، وخصوصاً طبقة الحكام منهم، من امراء ومشايخ مقاطعجيين بغية اقناعهم باعتناق الطقس الماروني. وقد نجحوا في حمل بعض الامراء الشهابيين واللمعيين على التنصر سراً في اول نشاطهم، فكان اول من تنصر "الامير علي الشهابي اخو الامير عمر الذي هو جد الامير بشير... وكانت نصرانيته على يد البطرك يوسف التيان بطرك الطائفة المارونية. وكان ذلك البطرك واعظاً فصيحاً وعالماً جليلاً في الغاية فاقنع الامير علي اتباع الديانة النصرانية فتنصر ولكن سراً مخافة ان تعلم الدولة فتنزع الحكم من بني الشهاب، واذ كان الامير من عُمد الامراء الشهابيين، صاروا يقتدون به فيتنصرون رويداً رويداً، وكان الامير بشير الثاني من جملة المتنصرين"(٥٥).

ان اسباب تنصر العائلات الاسلامية لا تبدو واضحة كل الوضوح، الا ان اسبابها الجوهرية تكمن ولا شك في مسألة العلاقة مع الغرب، وموازين السلطة في الداخل، حيث السلطة الفعلية تخرج شيئاً فشيئاً من يد المقاطعجيين الدروز. لقد تقاطعت هذه الوضعية مع العمل

(٤٩) انيس الصايغ، لبنان الطائفي، دار الصراع الفكري، بيروت ١٩٥٥، ص ٥٠–٥١. ايضاً: الخور اسقف يوسف داغر، بطاركة الموارنة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥٨، ص ٧٩–٨٠.

(٥٠) بطرس البستاني، قصة اسعد الشدياق، بيروت ١٨٧٨.

(٥١) عماد الصلح، اسعد فارس الشدياق، اثاره وعصره، دار النهار للنشر، ١٩٨٠، ص ٣٠.

(٥٢) Henri Guys, beyrouth et le Liban T.2 P. 196.

(٥٣) جون كارن، رحلة في لبنان في الثلث الاول من القرن التاسع عشر، عربها عن الانكليزية رئيف خوري، منشورات دار المكشوف، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٨، ص ٤٧ و ٥٠ و ٦٧.

(٥٤) انظر الوثيقتين رقم /٢/ و /٣/ في باب الملاحق.

(٥٥) راجع: الاب انطوان ضو، تاريخ الامراء اللمعيين، لا دار، بيروت ١٩٩٠ ص ٢٠٩. وعيسى اسكندر المعلوف، وسليم الدحداح، تنصر الأمراء الشهابيين واللمعيين في لبنان، مجلة المشرق ١٩٢٠، ص ٥٤٣–٥٥٢.

التبشيري، وجهود الرهبان ومهامهم الخفية داخل العائلات والاسر الحاكمة، فضلاً عن دور المدبرين وغالبيتهم من المسيحيين، ومحاولتهم اقناع الزعماء والاعيان ان استمرارهم في السلطة، يقتضي تبديل طقوسهم الدينية والمذهبية، لتصبح متجانسة مع الاكثرية المارونية التي تتألف منها الامارة، ولمواصلة الدعم الغربي المسيحي لهم.

لقد وعى رجال الدين من كل الطوائف، الخطر الناجم عن عمل المبشرين، وما تتمخض جهودهم من تفكك أواصر الدين الواحد، والمذهب الواحد، وقيام بعضها على البعض الآخر[٥٦] حتى ان ريستلهوبر عزا سبب العداء بين الدروز والموارنة الى تنصر اسرتي شهاب وابي اللمع[٥٧]. واعتبر اللورد دوفرين ان التباغض الكائن بين الروم الارثوذكس والموارنة، ليس بأقل من عداوة الموارنة والدروز[٥٨]. وآل التبشير ايضاً الى فقدان ثقة الطوائف بعضها ببعض، وخلق البلبلة والشقاق والفتن فيما بينها، بسبب دخول رجال الدين المرسلين والمبشرين الى البيوت، فضلاً عما احدثته جهودهم من خلل في تعايش الطوائف المشترك. والحذر من تفسخ البيت الواحد او الاسرة الواحدة، وتوزعها على عدة مذاهب او اديان[٥٩]، وليس ادل على ذلك من اسرة الشدياق، حيث كان طنوس المؤرخ على الطقس الماروني، واسعد على المذهب البروتستانتي، وفارس على دين الاسلام. وقد استذكر فارس اللغوي الشهير في كتابه "الساق على الساق" موقف اخيه طنوس ولامه واتهمه بعدم ايفاء اخيهما اسعد حقه من ابراز مناقبه وعلمه في كتاب "اخبار الاعيان في تاريخ جبل لبنان". رافضاً حجته بقوله: "ولا عذر لكم في عدم ذكر ذلك بان يقولوا انه ترك مذهب ابائه، فان تغيير المذاهب لا يسلب الانسان محامده[٦٠]".

أُعتبر المرسلون الانجيليون، والمبشرون بالمذهب البروتستانتي، شيئاً غريباً بالنسبة الى سائر المذاهب المسيحية، وخصوصاً المسيحيين الشرقيين والارثوذكس والكاثوليك، لانهم اعتبروهم يشكلون بدعة جديدة تمس صلب عقيدتهم، وتنال من ايمانهم بحقيقة الديانة المسيحية، وتلغي تراثهم وارتباطهم بارض المسيح. ولهذا السبب كان من العسير على البروتستانت، التأثير فيهم او إغراؤهم للارتداد عن معتقداتهم. ومع ذلك فقد تمكن الانجيليون من الدخول الى الجبل اللبناني، وانشاء رعية خاصتهم، ومن انشاء الكنائس والمدارس والمستشفيات، وممارسة نشاطهم على اكثر من صعيد، رغم قلة عددهم في بلاد الارز.

ويورد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني في مذكراته ان الدول الاوروبية المسيحية انفقت الملايين في سبيل نشر النصرانية في بلاد الشام، وكانوا يستخدمون المدارس العائدة "للإرساليات الاجنبية". وفي مكان آخر يقول السلطان: "والآن نجني ضرر ما زرعناه عندما سمحنا لكل دولة في كل زمان ومكان بإنشاء المدارس التي يرغبونها". ثم يشير عبد الحميد الى فكرة اخضاع غير المسلمين للخدمة

(٥٦) زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية، دار النهار للنشر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٩، ص ٥٢.
(٥٧) ريستلهوبر، تقاليد فرنسا في لبنان، ص ٢١. ايضاً الوثيقة /٣/.
(٥٨) انيس الصايغ، لبنان الطائفي، ص ٥٠. ايضاً: جون كارن، رحلة في لبنان، ص ١١٨-١١٩.
(٥٩) انظر الوفيقة رقم /٤/ في باب الملاحق.
(٦٠) احمد فارس الشدياق، الساق عل الساق في ما هو الفارياق، او ايام وشهور واعوام في عجم العرب والاعاجم، منشورات مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٦، ص ٥٦-٥٧ و ١٩٣-١٩٤.

العسكرية، فيؤكد "انه لو سمح للنصارى بالتجنيد لطالبوا ببناء الكنائس داخل الثكنات، واحدثوا جيشاً داخل جيش مؤلف من روم وبلغار وعناصر اخرى، وسعوا في تنصير المسلمين. اما اذا حدث اضطراب او عصيان، قامت هذه السرايا تقاتلنا من داخل جيشنا. ومن المعلوم ان النصارى في الممالك العثمانية مرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالدول الكبرى يأتمرون بأوامرهم ويتحركون وفقاً لإرادتهم"(٦١).

الخاتمة

تمخضت جهود المبشرين واهداف الارساليات الاجنبية، عن خلل على صعيد العلاقات بين الطوائف، اذ ان الخطورة الكبرى كمنت في ما نجم عن نشاطهم من نتائج اسهمت في تمويه الحس الوطني والقومي لدى السكان، بفعل ما زرع فيهم من ثقافات وولاءات خارجية، لا تمت الى واقعهم وبيئتهم بأي صلة. فالمعركة مع الارساليات هي في حقيقتها الجوهرية ترمي الى السيطرة السياسية والاقتصادية من خلال الاساليب والوسائل الثقافية. فالبروتستانت لا يكتفون بان يصبح المسيحي بروتستانتياً، بل ان يصبح ايضاً بولاء سياسي اميركي او إنكليزي. والكاثوليكي او الماروني مع فرنسا وبولاء سياسي فرنسي، والارثوذكسي مع روسيا وبولاء سياسي روسي. وبالرغم من ان هذا الولاء الدولي قد اصبح جزءاً من الذاكرة التاريخية، لارتباطه بفترة تاريخية سقطت نسبياً بمرور الزمن، الا ان الخطورة تكمن في انه ما زال يعيش في وجدان هذه الطوائف وفي ذاكرتها الشعبية وخلفيتها اللاواعية. وقد ساهمت المدارس التي انشأها المبشرون والارساليات الاجنبية، في ارساخ طروحاتهم الاساسية واهدافهم الحقيقية عبر وسيلتي التعليم والطبابة، وقد استمرت هذه المدارس طوال القرن التاسع عشر تلقن الناشئة والمريدين ثقافات الدول الغربية، فزرعت في نفوسهم وافئدتهم قبل عقولهم ومداركهم، محبة هذه الدول والتفاني في سبيلها. حتى ان فئة من سكان جبل لبنان عمدت عشية زيارة الامبراطور الالماني لبيروت عام ١٨٩٨، الى اطفاء انوار بيوتهم، بدلاً من اقامة الاحتفالات، واضرام النار على المرتفعات ورؤوس الجبال حفاوة وتكريماً بضيف جلالة السلطان، مخالفين تعليمات متصرف جبل لبنان آنذاك، وذلك تضامناً مع فرنسا ومحبة لها، وتعبيراً عن كرههم الشديد لألمانيا، بسبب هزيمتها لحكومة باريس في حرب نابليون الثالث وبسمارك سنة ١٨٧٠(٦٢).

هذا الواقع الذي آل اليه التعليم في جبل لبنان، والمتقاطع افقياً وعمودياً مع جهود الارساليات التعليمية واعمال المبشرين، يغاير كليا الدعوة التي اطلقتها مجلة الميشينري هيرالد عندما قالت ان "التعليم الذي تقرر تنفيذه في سورية سنة ١٨٦٢ يهدف الى غايتين رئيسيتين: **اولهما** تمكين النشء الصاعد من المواطنين من تحصيل ثقافة ادبية وعلمية ومهنية في البلاد على قدر ما تقتضيه متطلبات المجتمع، **وثانيهما** جعل هذه المؤسسة محلية لأبناء البلاد ومستقلة وتدعم ذاتها بذاتها، وانه يجب الحرص على الا يفقد الطلاب رابطتهم القومية لاكتساب اذواق وعادات اجنبية، بل يجب

(٦١) عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٨٩١–١٩١٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٦ ص ١٠٣ و ١٨٠ و ١٨٧.

(٦٢) لحد خاطر، عهد المتصرفين في لبنان ١٨٦١–١٩١٨، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٥٦٤.

أن يخرجوا من الكلية مزودين بثقافة جيدة (اي وطنية) تؤهلهم للاندماج مع اخوانهم للقيام بواجباتهم في الحياة[٦٣]. وهذا كما نعرف لم يحصل ان على مستوى الشعور الوطني والخطاب السياسي لمختلف الفئات بعد قيام الوطن اللبناني، وان على مستوى العيش المشترك والاندماج الثقافي بين المواطنين.

ان النهضة الادبية والعلمية، والتقدم الطبي والتمريضي التي تحققت في جبل لبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لا يفسر الا من خلال ما احتضنه هذا الجبل من مؤسسات تعليمية وطبية وتبشيرية وطباعية. وكان المبشرون واصحاب الارساليات، ومَنْ وراءهم من الدول الداعمة والممولة لهم، الرواد الاوائل في حقول التعليم والطباعة والطبابة والصحافة. وكان اختيار جبل لبنان حلبة ومسرحاً لهذا التنافس، خياراً موفقاً ليس للموقع المتوسط فحسب، بل للتنوع السكاني القائم فيه، وتوافق ذلك مع الدول الأوروبية المنسجمة دينياً والمختلفة مذهبياً وعقائدياً وسياسياً. وقد وجدت هذه الدول نفسها في الطوائف المسيحية المحلية. فروسيا وجدت نفسها وبالتالي سياستها في الروم الأرثوذكس، وفرنسا في الموارنة والكاثوليك، والنمسا والفاتيكان في الكاثوليك ايضاً، اما بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية، فعملتا على ايجاد طائفة خاصة بهما عبر التبشير بالمذهب البروتستانتي. ويظهر ان بريطانيا لم تكن ترهب نفوذ الولايات المتحدة في الشرق الاسلامي، كما كانت ترهب النفوذين الفرنسي والايطالي فيه، فهذا التنوع المذهبي شكل مدخلاً لتدخل الدول، ما لبث ان تعزز بما انشأته من مدارس ومعاهد تعليمية ساهمت في تأكيد النهضة الادبية والعلمية لجبل لبنان وسائر بلاد الشام. واذا كان هذا الامر قد عد من الايجابيات والمميزات التي اختص بها هذا الجزء من اراضي السلطنة العثمانية، فان اثاره السلبية لم تزل مستمرة حتى يومنا هذا، بسبب ما اوجدته من فوارق تعليمية وثقافات متنوعة وميول مختلفة وولاءات تتعدى حدود الانتماء المذهبي والديني وحدود الولاء الوطني، لترتبط بأهواء دولية ومصالح غير وطنية، وقد وجدت تعبيرات هذا الواقع في شعب تتماهى لديه الذاتية القومية ويضطرب في تفكيره الانتماء الوطني، حتى يصح ان يقال فيه انه شعب يكاد يعيش حالة اللاانتماء، والأصح ازمة وجودية تصل الى حد ضياع الهوية، وما ذلك الا بسبب المؤثرات الثقافية والفكرية التي اوجدته فيه غزارة المؤسسات المتناقضة تعليمياً او المتزاحمة تبشيرياً على ارض جبل لبنان. وقد دفع الوطن اللبناني اثماناً غالية من بناه الاقتصادية ومن ثروته الوطنية والحضارية. واذا كان هناك من ايجابية جراء الحروب الاهلية التي عصفت بالسكان ابتداء من سنة ١٨٤٠، وعلى مدى نحو قرنين من الزمن، فعسى ان تكون عاملاً فاعلاً في اعادة تكون قناعاتهم الفكرية والوطنية على اسس موضوعية صحيحة، وتسليمهم المصيري بأنهم شعب يعيش انتماءً ووجوداً وثقافةً في مداه الوطني، ومحيطه القومي، وصيرورته التاريخية على ضوء ما اتفق عليه في وثيقة الوفاق الوطني في الطائف عام ١٩٨٩، لا في ارتباطه وتطلعه نحو الغرب، ولا في انتمائه التعددي والحضاري، وحنينه الواعد الى تجارة صدفة الموريكس.

(٦٣) كرنيليوس فانديك، المذكرات، ص ٨٤.

الوثيقة رقم (١)

رسالة من البطريرك بولس مسعد إلى المطران طوبيا عون حول جمع أيتام كاثوليك لتربيتهم على الطريقة البروتستانتية. ٢٦ كانون الأول ١٨٦٠م.

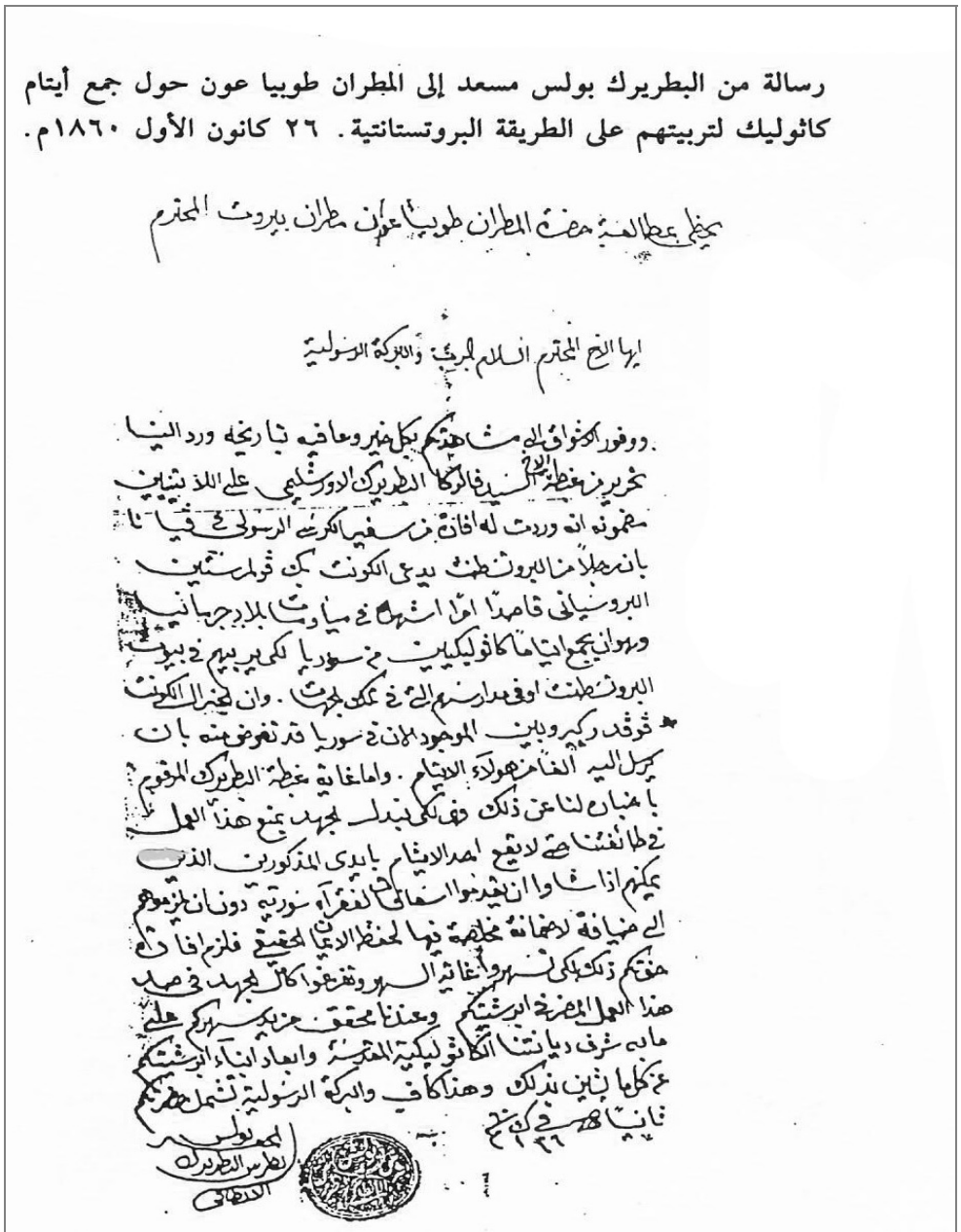

محفوظات البطريركية المارونية.

الوثيقة رقم (٢)

رسالة من بطرس البستاني حول نشاطات المبشرين البروتستانت في منطقة حاصبيا وموقف الروم الأرثوذكس منهم. حزيران ١٨٤٤م.

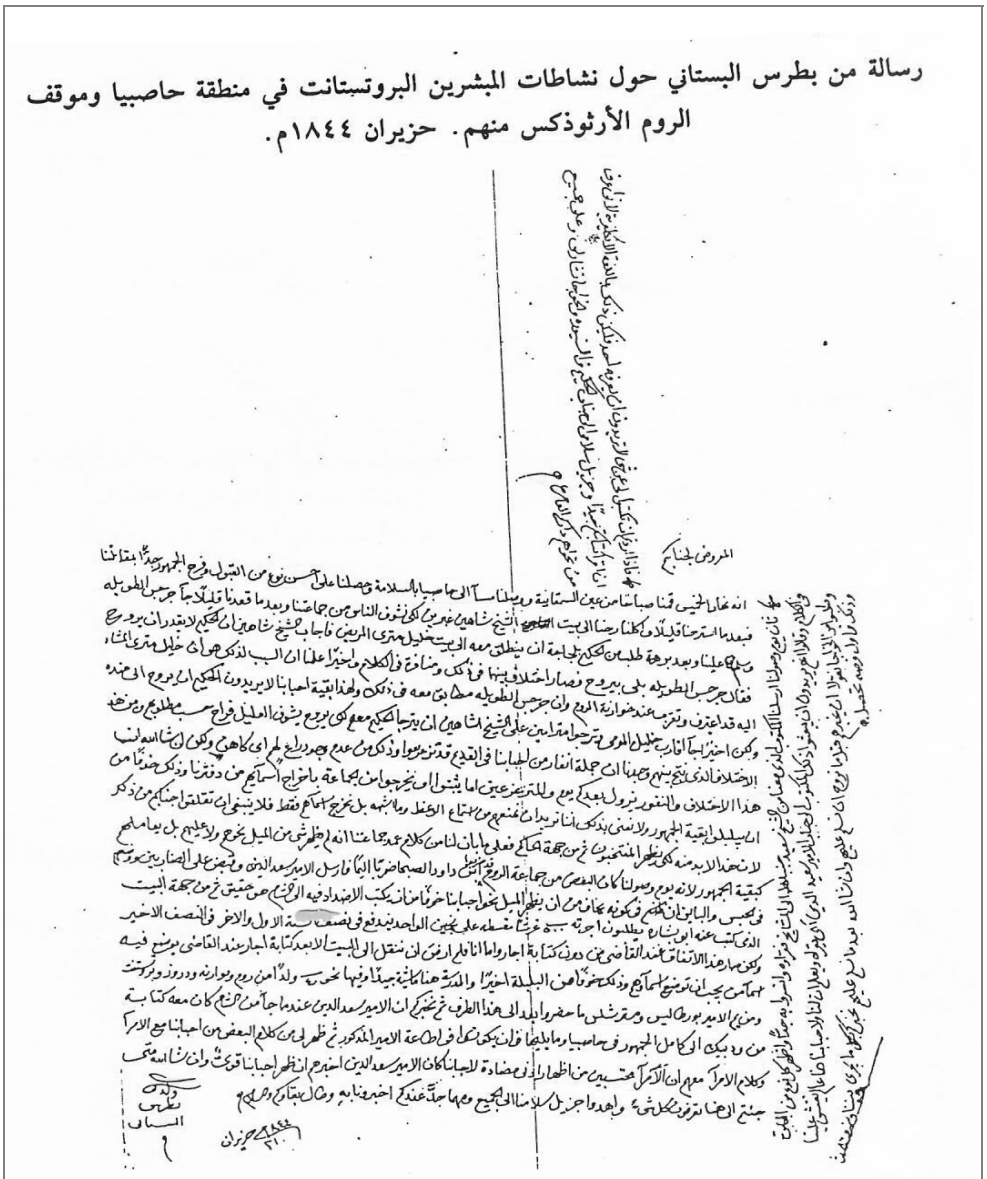

محفوظات المركز الوطني للمعلومات والدراسات ـ بعقلين.

الوثيقة رقم (٣)

رسالة من ميخائيل مشاقة إلى سميث البريطاني حول الصراع التبشيري وموقف الأمير الشهابي الحاكم في حاصبيا من هذا الصراع. ١٨٤٤م.

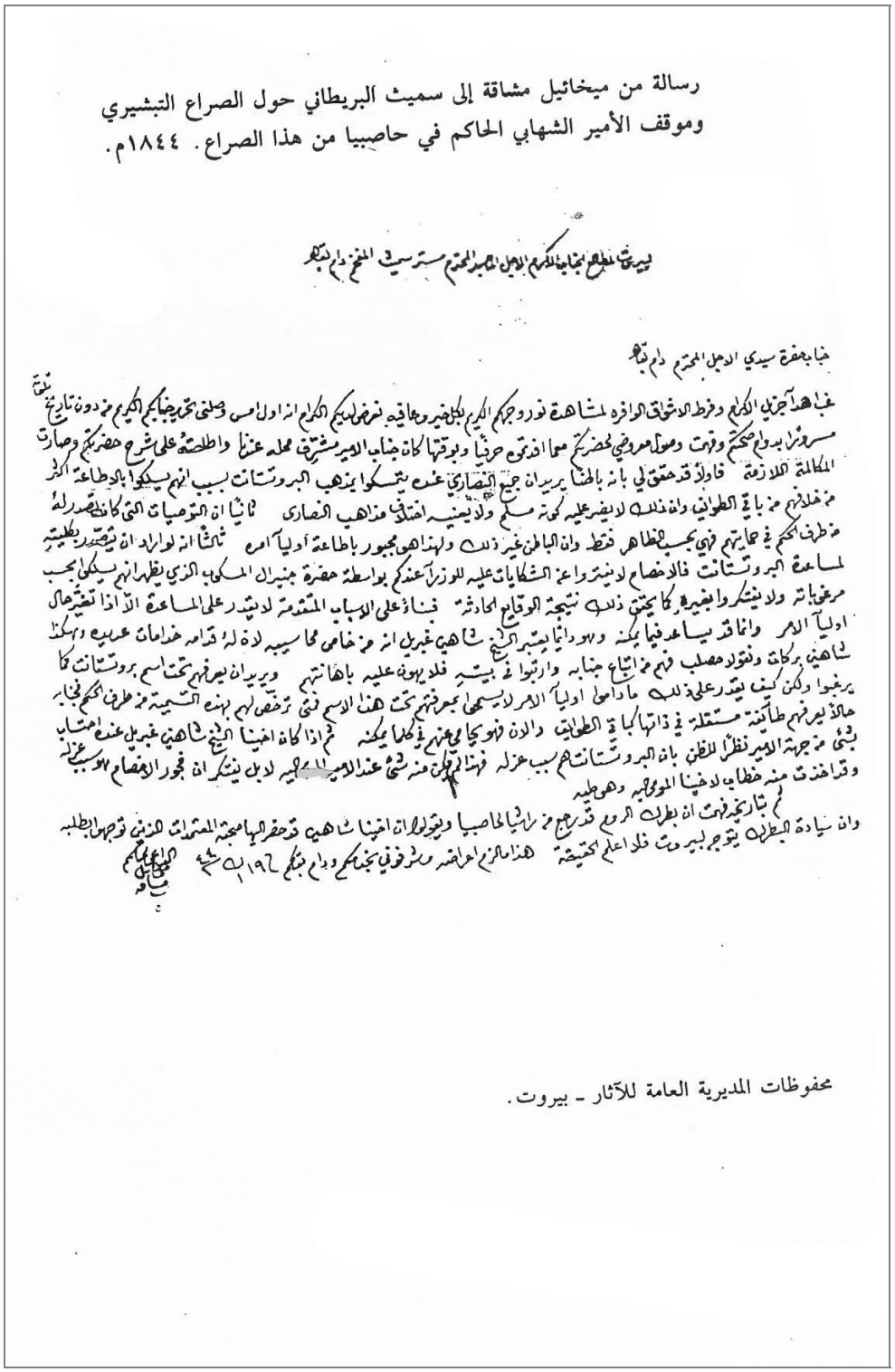

محفوظات المديرية العامة للآثار - بيروت.

الوثيقة رقم (٤)

جانب من نشاطات المبشرين وقداديس لقاء راحة الأنفس. ١٨٢٤م.

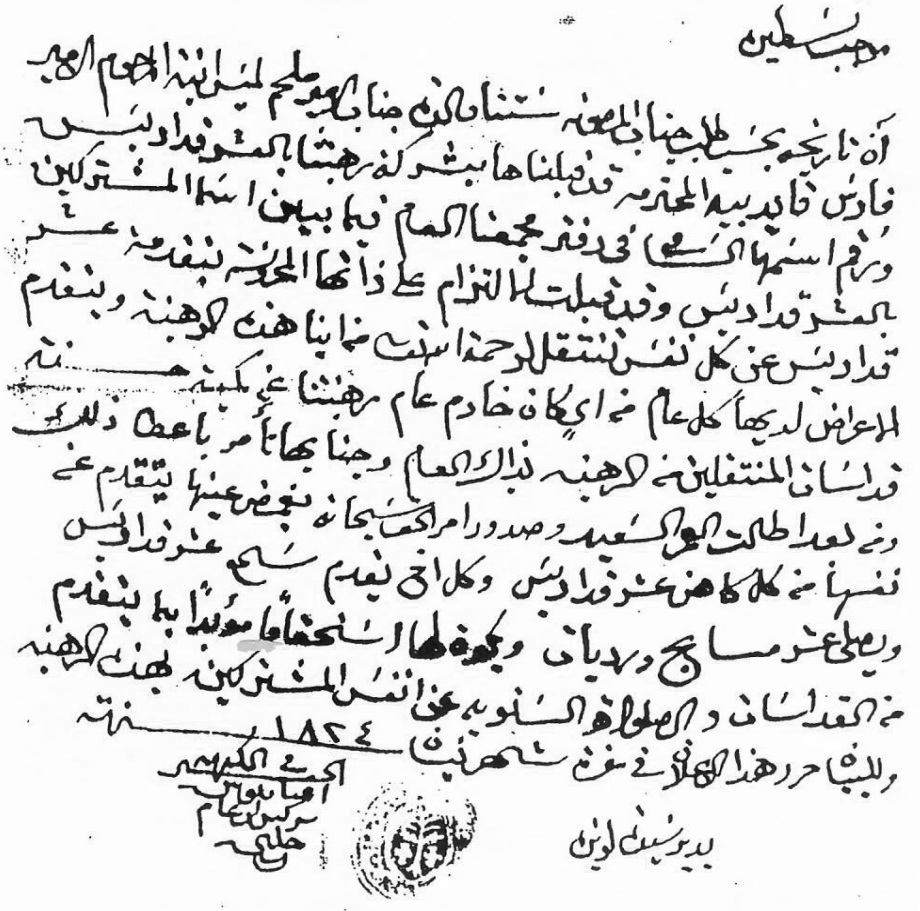

محفوظات المديرية العامة للآثار ـ بيروت.